عثمان دقنه

بقلم

حسن محمد حسن

مكتبة النشر سلسلة المشاهير : م/٦

الطبعة الأولى ١٩٥٢
الطبعة الثانية ١٩٥٥
الطبعة الثالثة ١٩٦٤

الطابعون : شركة الطبع والنشر الخرطوم

عثمان دقنه

حياة عثمان الاولى

ولد عثمان دقنه سنة ١٨٤٠ ، فى شرق السودان ، فى مدينة سواكن . وكانت عائلة عثمان دقنه من أصل تركى اختلط أفرادها مع البجة ، وتزاوجوا منهم ، وعاشوا معهم أجيالاً طويلة . ونشأ عثمان كأحد أبناء الهدندوة ، يحب السباق والجرى ، وتسلق الجبال ورمى الحراب ، والمصارعة — يلعب « ويعافر » كما يلعبون « ويعافرون » بنشاط معروف وحركة مستمرة . ثم دخل عثمان الخلوة ليقرأ القرآن ، ويتعلم الكتابة ، والقراءة ، والحساب . ولكنه لم يبق طويلاً فى الخلوة ، لأنه انضم الى اخوانه وأقربائه فى الأعمال التجارية ، وكانوا يتاجرون بالسنابيك الكبيرة بين سواكن والحجاز ، فيحملون محاصيل السودان ، كالذرة ، والسمسم ، والتمباك . وأحيانا الجلود وبعض الحيوانات ، كالابقار ، والخرفان ، ويعودون بالأقمشة ، والروائح ، والبخور ، والعسل ، والزبيب والبن وغيرها من البضائع ، التى ترد الى الحجاز ومن بلاد الشام واليمن والهند .

وكانت تجارتهم رابحة ، ودكاكينهم عامرة ، وزبائنهم كثيرين ولكنهم لم يقنعوا بذلك ، بل كانوا « يبرشتون » البضائع الممنوعة ، فيهربونها طمعاً فى الربح الفاحش الفاسد.

تعلم عثمان حب الأسفار ، فأصبح ولداً « ملحلحاً ومدردحاً » لا يفوت عليه شيء ولا تخفى عنه خافية ، وفى مرة من المرات ، كان عثمان فى عرض البحر راكباً سنبوكاً فيه دقيق مهرب الى الحجاز فاعترضتهم سفينة انجليزية كبيرة ، وألقت القبض على السنبوك وصادرت ما فيه من التجارة ثم دخل عثمان دقنة السجن بعد أن فتشوهم ، وكتفوهم بالحبال ، وضربوهم ضرباً شديداً وأذاقوهم من العذاب الشديد ألواناً ، وقام مفتش سواكن التركى ، وفتش دكاكينهم فى سواكن ، ثم طردهم ، وحرمهم من التجارة فرحلوا الى بربر ، تاركين أموالهم للحكومة التركية التى صادرتها بالقوة والسلطان .

غضب عثمان دقنة على الانجليز الذين أسروه وجلدوه وعلى الأتراك الذين أفقروه وصادروا تجارته ، وقفلوا دكاكينه ثم طردوه من بلده وأهله ، وعشيرته ، ولكنه تحمل كل هذا العذاب ، وهو ينتظر الفرصة للانتقام ، ورد حقوقه ولم يطل انتظاره ، لأن المهدى قام بالدعوة من أبا

وكردفان ضد حكومة الاتراك وأعوانها الانجليز .

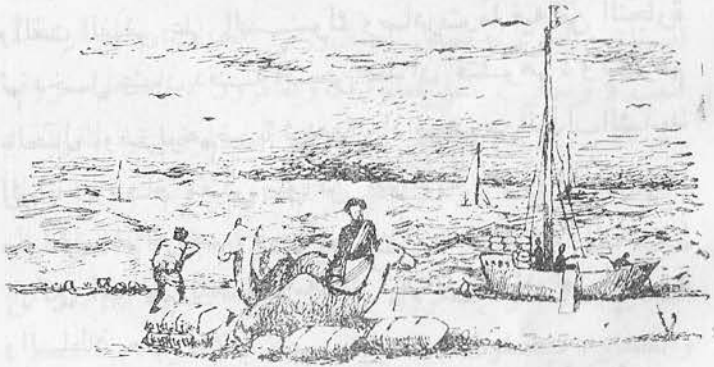

عثمان دقنه من امراء المهدية

كان عثمان دقنة فى بربر ، عندما سمع بموت أخيه الأكبر عمر فى الأبيض . وكان عمر من أنصار المهدى المخلصين الذين آمنوا به ، واتبعوه ، وحاصر معه الابيض فصمم عثمان على السفر للأبيض وهناك انضم لجيش المهدى . ففرح المهدى فرحاً شديداً لأنه يعرف ان عثمان رجل شجاع ، ومحارب قدير فعينه المهدى أميراً على شرق السودان ، لأنه يعرف تلك البلاد معرفة جيدة منذ أن نشأ وتربى فيها ، ولأن شرق السودان بلاد جبلية ، وطرقه متشابكة وصعبة المعرفة ، الا لمن خبرها وعرف مداخلها .

كانت هذه المهمة صعبة جداً ، لأن عثمان دقنة أعزل (غير مسلح) بمفرده لا يملك جيشاً قوياً كالجيش التركى المنظم ولا أسلحة وبالرغم من ذلك ، فقد أصر عثمان دقنه « وركب رأسه » مصمماً على أن يحارب الاتراك ، ولو كان بنفسه مفرداً وحيداً من غير رجال ، ولا مال ، ولا عتاد .

سافر عثمان دقنة ، وقد لقبه المهدى ، أمير الشرق ، وأعطاه خطابات كثيرة الى رؤساء القبائل ، ورجال الدين ، والتجار والأعيان ، ويدعوهم فيها للانضمام الى حركة المهدية ، يخبرهم بأنه عين عثمان دقنة أميراً من أمراء المهدية على

شرق السودان ، وانه وجبت عليهم طاعته ، وسماع كلمته .

وصل عثمان دقنة الى الشرق ، ووجد معارضة قوية فى شرق السودان . ولكن الشيخ الطاهر المجذوب ، من أصحاب الكلمة الدينية النافذة ، قبل دعوة عثمان ، وانضم اليه هو وتلاميذه « حيرانه » وأصدقاؤه . وأصبح عددهم يزيد يوماً بعد يوم ، وعثمان دقنة ينتقل من قرية الى قرية ومن قبيلة الى قبيلة ، يقضى أسبوعاً عند قبائل الهدندوة المشتتة فى الجبال البعيدة ، وأسبوعاً مع البشاريين ، ينتقل بين خيامهم ، ومضاربهم ، ومساكنهم حتى اجتمع حوله عدد كبير من الشيب والشباب ، يحملون السيوف ، والحراب ، والعصى ، ويركبون الخيل ، والجمال ، والحمير . وبعضهم من غير دابة ، ولا ركوبة ، بل يسير على قدميه ، يطلب الجهاد مع أمير الشرق ، والحرب فى سبيل تحرير البلاد . فكر الأمير عثمان دقنة فى ان يحتل سنكات ، ويجعلها عاصمته ومركز حكومته ، ويطرد الجنود الاتراك منها وبذلك يحاربهم ويحارب توفيق بك قائد فرقة الحرس فى سنكات . وكانت الفرقة صغيرة مكونة من عدد قليل من الجنود ، ولكنهم مدربون تدريباً حسناً . ويعرفون استعمال السلاح ، والبنادق ، والمدافع النارية معرفة جيدة .

أرسل عثمان دقنة خطاباً الى توفيق بك يطلب منه أن يسلم ما عنده من جنود وسلاح ، وينضم الى قوات المهدية ولما قرأ توفيق بك خطاب الأمير عثمان غضب غضباً شديداً لأن دقنة يطلب منه أن يخون شرفه ، وكرامته العسكرية . التى يفخر بها توفيق بك . فردعليه يقول : « أنا لا أسلم البلاد الا بأمر الخديوى ولكنك اذا أردت الحرب فسأحاربك دفاعاً عن شرفى ، ولا يهمنى الموت ، لأنى جندى مخلص . فسأدافع عن سنكات بكل الوسائل التى عندى » .

وعرف عثمان دقنة من خطاب توفيق بك أنه لا يريد أن يسلم له المدينة . واذن لا طريقة أمام عثمان الا الحرب ، وأخذ المدينة بالقوة . فأمر عثمان دقنه جنوده بالزحف على سنكات ، وتحرك هو بنفسه راكباً جواده متقدماً الجيش ،

ودخل على القائد فى قصره بعد أن كسر الباب وقتل الحراس .
وكان توفيق بك جالساً فى مكتبه ، وأراد عثمان دقنه أن يهجم عليه ، فاسرع أحد خدم توفيق وضربه بالسيف فى ظهره .

لزم عثمان دقنه السرير من جراحه الخطيرة أكثر من عشرين يوماً ، كان يتعالج خلالها بالأدوية البلدية . وكتب للمهدى يقول : (ان قلعة سنكات قوية ومستعدة للمقاومة وانه خرج جريحا فى رأسه ، ويده وظهره ، وان توفيق بك رجل شجاع وقدير فى ادارته وقيادته ، وانه سيعود لمحاربة سنكات ويأخذها من الاتراك ، مهما كلف الامر)

فأمر بعض جنوده أن يحاصروا المدينة ويمنعوا الدخول اليها ـ أو الخروج منها ـ وأمر جنودا آخرين أن يقطعوا الطرق الخارجية ، وأسلاك التلغراف ، ويحتلوا أماكن المياه وبذلك أصبحت سنكات محاصرة حصاراً شديداً وجميع المواصلات مقطوعة منها ـ واستمر هذا الحصار مدة طويلة ارتفعت فى أثنائها أسعار البضائع ، ثم انعدمت وأصبحت الحالة لا تطاق .

جمع توفيق بك رجاله ، وخطب فيهم قائلا : (ان المدينة

جائعة ، ولا بد من فك هذا الحصار الشديد ، فلنخرج جميعاً لمحاربة عثمان دقنه ، اذا تعرضنا ونحن نذهب الى سواكن . فاما النجاح ، واما الموت الشريف)

وخرج توفيق بك مع اربعمائة من جنوده . فهاجمهم عثمان دقنه بستين الف محارب . قتلوا توفيق بك وجنوده عن آخرهم وبذلك أصبحت سنكات تحت سلطان أمير الشرق .

الأمير عثمان دقنة
والخليفة عبدالله التعايشى

استمر عثمان دقنة وهو فى سنكات أميراً للشرق ، الى أن سمع بموت المهدى فجمع مشائخ القبائل وأخذ منهم البيعة للخليفة ثم كتب اليه وأخبره بأن الاتراك أقوياء ، وبأن سواكن صعبة المنال ، لأن طابيتها قوية ، وجنودها كثيرون ، تصلهم الامدادات بالبحر الاحمر من مصر ، وبذلك لا يمكن حصارها كما فعل فى سنكات ، وان عدد الجنود فى سواكن أكبر من عدد الأنصار عنده . وكتب الخليفة عبد الله الى الأمير عثمان دقنة بعد وفاة الأمير عبد الرحمن النجومى فى موقعة « توشكى » فى شمال السودان ، يخبره بأنه عينه أميراً على جميع أمراء المهدية وبذلك يجب أن يحضر

الى أم درمان ليتسلم وظيفته الجديدة فى عاصمة البلاد .

حضر عثمان دقنه الى امدرمان ، وقابل الخليفه عبد الله التعايشى ، وكان الخليفة عبد الله يعرف الأمير دقنه من الابيض ويعرف عنه الذكاء ، والصبر ، والشجاعة ، والرجولة ، والحزم ، والعزم .

وكانت لعثمان دقنه كلمة نافذة قوية ، مسموعة فى امدرمان وكان عضواً فى مجلس الخليفه الخاص ، ويشرف على تنظيم الجنود وتوزيعهم . وكان الخليفة يحبه ، ويحترمه ، ويستشيره فى جميع المسائل الكبيرة فى ادارة البلد . ولما جاءت الاخبار للخليفه أن الحكومة التركية قد بعثت بجيش كبير تحت قيادة قائد انجليزى كبير ، اسمه « الجنرال كتشنر باشا » ليفتح السودان مرة ثانية ، أرسل عثمان دقنة ليلاقى الجيش الفاتح فى عطبرة ، قبل أن يصل الى أم درمان وكان الأمير محمود ود أحمد أحد أقرباء الخليفة وأحد قواد الجيش ، ذاهبا مع دقنة ، ليشترك فى موقعة عطبرة . وكان الأمير محمود يظن نفسه الرئيس الأكبر ، والقائد الأول ، وبذلك لا يسمع رأى عثمان دقنة ، ولم يتفق القائدان فى تنظيم جيشهما ضد الجنرال كتشنر باشا : وتمكن كتشنر من أن ينتصر فرجع عثمان الى أم درمان ، ليشترك مع الخليفة

عبد الله فى الموقعة الكبرى .

وفى موقعة أم درمان ، دافع جيش الخليفة دفاعاً قوياً ولكن نيران العدو ، ومدافعه الثقيلة ، الخارجة من السفن النيلية كانت تحصد الأنصار حصداً ، وتقتلهم بالمئات والآلاف . وكان الانصار يستعملون بنادق قديمة ، وسيوفا وحراباً ، وثيابهم البيضاء تظهرهم للعدو فى أراضى كردى الجبليه الغبراء فيصبحون هدفاً واضحاً أمام نيران العدو الشديدة . واشتدت المعركة وتعب الأنصار . وكثر عدد قتلاهم وجرحاهم ولكن دقنة لم يفقد الأمل فى النجاح وطلب من الخليفة أن ينسحب من الموقعة ويجمع جيشاً آخر يحارب به كتشنر بدل أن يبقى فى المعركة فيصيبه الفشل ويستولى عليه الاعداء . انسحب الخليفه عبد الله ومعه عثمان دقنة وبعض الأمراء الآخرين وعادوا الى أم درمان وأخذوا منها عوائلهم وضرورياتهم ثم فروا الى الغرب ، وكان دقنه مكلفاً بحماية النساء والاطفال لما هاجمهم الجنرال وأخذوا منها عوائلهم وضرورياتهم ثم فروا الى الغرب ، وكان الجديد بالقرب من تندلتى . واما عثمان دقنة فرجع الى شرق السودان ، وكان ينوى الذهاب الى بلاد العرب ليعمل فى التجارة كما كان فى أيام صباه لأن بقاءه فى السودان

أصبح أمرا مستحيلا .

تكتيك عثمان دقنه الحربى

كثيراً ما يحلو لى أن أشاغب جدى العجوز فأهاجم أبطال الهدية بأنهم لا يعرفون عن فن الحرب شيئاً فلما سمع ذلك أخذ يتحدث الىّ فى حماس شديد ، فقال : ــ

(صحيح يا صغيرى اننا لم ندرس فن الحرب فى المدارس كما تفعلون الآن . ولم تكن لدينا تلك الأسلحة الفتاكة التى توصلتم اليها . ورغم هذا فانى أتحدى أىّ قائد حيث يكون فى مستوى عثمان دقنة ، وفى مقدرته وتكتيكه الحربى)

هنا ضحكت ضحكة ساخرة فى وجهه وقلت : « يا جدى لقد كنتم شجعانا بحق . ولكنها شجاعة حمقاء لا تتركز على خطط مدروسة » فغضب جدى ، ثم اعتدل مرة أخرى وأخذ يحدثنى الحديث الآتى عن تكتيك عثمان دقنة الحربى : ــ

« عندما كان كتشنر يتقدم نحو عطبرة ، كان عثمان دقنة فى جيش محمود ود أحمد .

«فأشار عثمان دقنة لمحمود ود أحمد ألا يعسكر بجيشه فى عطبرة نفسها ، نظراً لقربها من قذفات المدافع من وابورات كتشنر الواقفة على النيل ولوقوعها فى طريق جيشه البرى . ونصحه بأن يتحرك بجيشه نحو غابة الدوم ، حيث يجد الجيش غذاء الدوم والساتر الكثيف من أعين الاعداء »

هنا قاطعته قائلا : «أهذا كل ما أشار به بطلكم العظيم؟»

فأجاب جدى : « لا تتسرع يا بنى . لم يقف عثمان دقنة عند هذا الحد . ويحسن أن تستمع لباقى خطته . لا يبقى كل الجيش فى غابة الدوم ، بل يتحرك جزء منه لجنوب نهر عطبرة وينتظر هناك .

«كان غرض عثمان دقنة ، أن يتحرك جيش كتشنر ويتقدم الى ما بعد عطبرة بقليل ، وحينذاك يلاقيه الجزء الذى يعسكر

فى الجنوب من امامه ويناوشه ، وفى هذه الأثناء ينقض عليه (يهجم عليه بسرعة) جيش غابة الدوم من الخلف . وبهذا يصبح جيش كتشنر بين نارين هيهات أن ينجو هو وجيشه من لهيبهما »

هنا صحت فى دهشة : يا لله ! هذا عين ما اتبعه هتلر مع جيوش الحلفاء فى الحرب الكبرى الأخيرة . وقد سمعت الناس يسمون هذه الخطة الهائلة بحركة الكلابة . أجل ذلك عظيم ؟ ، بربك زدنى يا جدى مما نعرف عن تكتيك عثمان دقنة . انه والله لقائد عظيم ! ! »

هنا تحمس جدى وقال : « وفى أم درمان يا بنى ، كان المجلس قد اتفق مع رأى الخليفة القائل بتأخير الهجوم على جيش كتشنر عند الصباح الباكر ، ولم يخالفه أحد سوى عثمان دقنة .

جيش كتشنر مزود بأحدث الاسلحة ، فالوابورات الواقعة على النيل تحمل المدافع البعيدة المرمى ، والجنود المشاة يحملون البنادق الجيدة وليس لجيشنا سوى الشجاعة الحمقاء كما سميتها ، وقليل من البنادق القديمة ، وشىء من حراب وسيوف .

خالف عثمان دقنة الخليفة عبد الله فى الهجوم نهاراً ، وشدد فى أن يهاجم ليلا ، وغرضه من ذلك ، هو أن جيش كتشنر لا يعرف أماكننا بسهولة كما هو الحال بالنهار ، وبذلك لا يستطيع أن يقتل كثيراً منا . بينما نستطيع نحن أن نقلقه ونعرف أماكنهم لخبرتنا بالمكان . والمكان كما تعلم يا بنى هو كررى . »

« أتدرى ماذا حصل يا بنى ؟ لم يوافق الخليفة على هذه الفكرة كما لم يوافق محمود ود أحمد من قبل فى عطبرة ولو عمل بهذه الخطط لتغيرت نتيجة هاتين المعركتين .

«هذا يا بنى قليل من كثير من تكتيك عثمان دقنه ،الذى أقلق منام أعدائه الأقوياء . ومع هذا كله فلم تستطع جيوش الحكومة التركية أن تقبض عليه لأنه كان كالنسر فى انقضاضه (هبوطه) وكالفار فى اختفائه وراء جبال شرق السودان التى عرف كل ركن فيها . »

هنا ناولته ابريقه للوضوء .وتمنيت أن لو حدثنى عن المزيد من تاكتيك هذا القائد العظيم .

وصل عثمان دقنة الى سواكن • فذهب متنكراً الى صديق ليحميه ، حتى يدبر لنفسه طريقة يفر بها الى الحجاز

وكانت الحكومة تبحث عن عثمان دقنة فى كل مكان ، لأنه خطر على الأمن وسلامة الحكومة ، ولربما يقود ثورة أخرى ضد الاتراك والانجليز •

خاف صديق عثمان أن تعرف الحكومة انه تستر على عدوها الكبير ، فيتعرض الى السجن ، والعذاب • فذهب وأخبر القائد فى سواكن ، ان عثمان دقنة يختفى فى منزله • وجاء هذا الصديق الخائن ومعه الجنود ليقبضوا على عثمان دقنة وأحس الأمير دقنة بحركة أقدام الجنود ، وهم يتحركون بسرعة الى مكانه ، فقال له أحد رجال البوليس : « يا أبو حليمة انت داخل الشرك ، لا تحاول المقاومة ، فتضر نفسك » ولكنه نازعهم وعاكسهم ، حتى قبضوا عليه ، ثم كشفوا عن رأسه وظهره فوجدوه مضروبا فى رأسه ، وأثر الجروح القديمة واضح فى ظهره • فتأكدوا أنه عثمان دقنة ، بطل الشرق قد وقع أسيراً عندهم فكتفوه وأخذوه الى القائد فى مواكن •

فرحت الحكومة لأنها قبضت على عدوها القديم ، فأرسلوه الى سجن السويس ، على ظهر باخرة من سواكن وبعد أن مكث زمنا فى سجن السويس أخذوه الى سجن رشيد • والى سجن ليمان طرة المعروف « بأبى زعبل » فى مصر • واستمر عثمان دقنة سجينا ثمانى سنوات ، عاد بعدها منفياً فى بيت صغير خلوى خارج حلفا ، وتحت حراسة البوليس •

كان عثمان صبوراً على الشدائد لا يخاف ولا يجزع ولكنه يقابل الصعاب والعذاب برجولة فائقة •

وفى منفاه فى حلفا ، كان عثمان دقنة يقرأ القرآن ، ويرعى الأغنام ويعد الطعام بنفسه • واستمر فيه ستة عشر عاماً ويذكر أيامه القديمة بخيرها وشرها ويتذكر صباه وتجارته ويذكر البحر والقوافل ويذكر الحرب والجهاد ثم يتذكر الأسر والسجن والمنفى •